No.198 (18/5/05)

سياسية ثقافية أسبوعية
حزب الشيوعي السوري
السنة الخامسة



علوم، انترنت، بيئة..

أوراق نبيه رشيدات.. الأردني الدمشقي، والطبيب المناضل
الرفيق حنين نمر محاضراً حول مقومات (تجديد حركة التحرر الوطني العربية)

علوم، انترنت، بيئة../ نصر شمالي

# أوراق نبيه رشيدات.. الأردني الدمشقي.. والطبيب المناضل

يستطيع أي إنسان يتحلّى بقدر كاف من العقلانية والمعرفة، ومن الإنصاف والاستقامة، اتخاذ موقف في الحياة العامة يتعارض مع بيئته الخاصة المريحة. لكن الأصعب أشد الصعوبة هو المحافظة على مثل هذا الموقف، وتطويره والمضي به قدماً، منذ اليفوع حتى نهايات العمر. والدكتور نبيه رشيدات واحد من الذين تغلبوا على هذا الصعب ومضوا في خيارهم العام حتى نهايات العمر، فهو اليوم- أطال الله عمره ورعى صحته - واحد من شيوخ الحركة الشيوعية، ليس العربية فقط بل الأممية أيضاً. إنه من أولئك الذين لم يغادروا الميدان بتدرجاته الزمانية والمكانية، وبانقلاباته الفكرية والسياسية، ولم يتحولوا عن السمت التاريخي الذي اختاروه والتزموه، فاستحقوا عن جدارة صفة المرجعية العامة، الموثوقة والمحترمة، التي تحتاجها الأجيال في هذه الظلمات!

العقلانية والمعرفة والإرادة الحرة

إن أول ما يستوقف في سيرة الدكتور رشيدات (مواليد الأردن عام ١٩٢٢ ) أن اختياره لطريقه في الحياة العامة قام على معايير العقل والمعرفة وليس معايير البيئة الخاصة. والحياة المعيشة، التي كانت مريحة سليمة مادياً وأخلاقياً وسياسياً. إن أوراقه التي دونها في كتاب ووصفها بأنها ليست شخصية، وهي كذلك حقاً، لا تشير الى دوافع اجتماعية ميدانية جعلته وهو في نحو العشرين من عمره ينخرط في صفوف الحزب الشيوعي. بل إن الظروف الأسرية والاجتماعية والسياسية التي عرضها في كتابه تدفع بداهة إلى توقّع خيارات أخرى، وطنية قومية، كان يفترض أن يأخذ بها. ولو أنه أخذ بأحدها لكان ذلك صحيحاً لا خطأ فيه ولا ينقص من قيمة موقفه، لكن اختياره الانخراط في صفوف الحزب الشيوعي، الذي كان صحيحاً أيضاً، زاد حقاً في أهمية وقيمة موقفه قياساً بوضعه الاجتماعي. لقد كان موقفاً يدعو للإعجاب والاحترام سواء اتفقت معه أم لم تتفق، فقد استند إلى أسباب بدت عقلانية محضة، وإلى محاكمات ومقارنات بدت حرة منطقية، ولا أثر في كل ذلك للمصالح الأنانية الضيقة التي إن وجدت فإنها يمكن أن تتفق مع خيار سياسي آخر!

منذ فتح عينيه على الحياة لم يكن الدكتور رشيدات معزولاً ولا منعزلاً عن الحياة العامة الميدانية، بل كان منخرطاً في تفاصيلها اليومية، ففي الثامنة من عمره نزل إلى الشارع في الأردن داعياً الناس لانتخاب حسين الطراونة: (لأنه وطني، وضد المعاهدة مع بريطانيا، وعدو الإنكليز)! وقد نذر وأخته الصيام في حال نجاح الطراونة، ووفّى الطفلان بنذرهما فعلاً! أي أنه لم يكن متناقضاً مع أسرته الوطنية القومية، الميسورة الحال، بل كان مندمجاً فيها بمحبة ومنخرطاً في نشاطاتها بحماسة.

ولمزيد من الإيضاح حول المعاني الطيبة والمدلولات الإيجابية لاختيار الدكتور

رشيدات الحزب الشيوعي، ننقل عنه أنه عاش في مدرسة مدينة الكـرك حيـاةً وطنيةً قوميةً معاديةً للاستعمار والصهيونية، وأنه وأقرانه كانوا يـرددون الأناشـيد العربية كل صباح، ويحتفلون كل عام بيوم الثورة العربية الكبرى، وأن الأساتذة الذين جاؤوا من فلسطين ولبنان وسورية كانوا يحدثونهم عن خيانة الحلفاء للثـورة، وعـن ثورة عبد الكريم الخطابي في المغرب، بل وعن تاريخ الأندلس، ويحضـونهم علـى حفظ القصائد والمقطوعات الأدبية التي تمجد العرب وتدعوهم للنهوض. إن الـدكتور رشيدات يتذكر كل ذلك بحنين واعتزاز واضح. وفي البيت- كما يقول - كان يستمع إلى والده عبد الرحمن رشيدات، الشخصية الوطنية القومية المرموقة، وهـو يحـدث ضيوفه عن تاريخ العرب وتاريخ الحروب الصليبية، وعن مخاطر المعاهدة الإنكليزية على الأردن..إلخ، وإن ذلك كله يبدو مدعاة لرضاه وفخره، فلماذا لم يواصـل علـى خطا والده؟

الأهرامات أسست لخياره السياسي!

يروي لنا الدكتور رشيدات في أوراقه، ببساطة ساحرة، عن ذلك الحدث الذي كان نقطة التحول في تفكيره حين كان في الرابعة عشرة من عمـره، فيقـول إن أسـتاذ التاريخ حسني فريز حدثهم عن الأهرامات، فأوضح أن هناك رأيين في تفسير هـذه الظاهرة التاريخية، أحدهما يقول بأنها عمل هندسي عظيم خالد يدل على عظمة الدولة التي بنته، ويكتفي بذلك! والثاني يقول إن الأهرامات رغم عظمتها الهندسية هي عمل حقير اجتماعياً، لأن ملكاً واحداً أجبر عشرات الألوف من الناس على العمـل خـلال أكثر من عشرين عاماً، وبأعمال شاقّة، لبناء قبر له يخلّده، وهكذا فإن الأهرامات في التاريخ الاجتماعي هي رمز للعبودية!

يقول الدكتور رشيدات إن حديث الأستاذ فريز عن الأهرامات أحـدث أول نقلـة نوعية في تفكيره، فانفتل رأسه مئة وثمانين درجة-حسب تعبيره- وصار يمتلك رأياً جديداً في تفسير التاريخ! وهكذا فإن الصدمة الاجتماعية الأولى، المبكرة، جاءته مـن الأهرامات ومن التاريخ الاجتماعي الموغل في القدم، وليس من محيطه الاجتماعـي بالدرجة الأولى ولا من محيطه الأسري الذي لم يعترض عليه في أوراقه بل تحـدث عنه بإعجاب وولاء ومودة. ويفترض أن تلك الصدمة التي أحدثها أستاذ التاريخ فـي فكر تلميذه كانت مهمة في التأسيس لتحولاته العقلانية المعرفية، ومحاكماته ومقارناته المنطقية، التي ساعدته في ما بعد، في مطلع شبابه، على اجتياز المسافة بسرعة نحو الحزب الشيوعي، من دون إغفال أحاديثه مع عدد من المناضلين الذين ساعدوه فـي اجتياز تلك المسافة.

بيئة عشائرية، وابن شيوعي!

تنتمي أسرة الدكتور نبيه رشيدات إلى واحدة من تلك القبائل الـتي قـدمت مـن الجزيرة العربية قبل نحو مئتي عام، واستوطنت فـي فلسطيـن والأردن وسـورية، محتفظة بالكثير من تقاليدها وعلاقاتها القبلية. وهذه معلومة تزيدنا إعجابـاً بخيـاره السياسي واحتراماً لشخصه، لكن علاقات أخرى ساعدت علـى تكـوين شـخصيته الاجتماعية الحديثة، فوالدته لبنانية من أسرة حشيشو الصيداوية المعروفـة، وخالاتـه تزوجن من أبناء أسر لبنانية وأردنية، وخال والدته هو السوري الحلبي الشيخ الشافع أبو ريشة والد الشاعر عمر أبو ريشة. أما عن والده عبد الرحمن رشيدات فقد أنهـى دراسته الابتدائية في إربد، وأكمل الثانوية في مكتب عنبر الشهـير بـدمشق، دفعـة المجاهد فخري البارودي. ثم أتم دراسة الحقوق في الأستانة، وبعدها أصبح من كبار الموظفين الذين يتنقلون ما بين حمص وإربد قبل انهيار الدولة العثمانيـة، ثـم كـان عضواً في المؤتمر السوري الذي أعلن الاستقلال عام ١٩٢٠ وتوج الملك فيصل.

لقد كانت أسرة الدكتور رشيدات متقدمة في سـويتها الاجتماعيـة والسياسـية، ومنشغلة ميدانياً بتلك الأحداث المصيرية العظمى: وعد بلفور، خيانة الإنكليز للعرب، اتفاقية سايكس/بيكو التدميرية، احتلال الفرنسيين لسورية ولبنان والإنكليز لفلسطيـن والعراق، ثم ظهور إمارة شرق الأردن وربطها مع الإنكليز بالمعاهدات! وهكذا فـإن شخصاً منصهراً في أسرة كهذه، بمحبة وحماسة، كان متوقعاً أن يسلك بداهة طريـق والده، لكنه اختار طريق الحزب الشيوعي. وبما أنه أخلص لخياره مواصلاً طريقـه حتى اليوم بكل تفان واستقامة (وما أكثر الذين تراجعوا ويتراجعون!). فقد برهن بذلك عن سوية عالية من احترام العقل وإنكار الذات، خاصة عندما نطّلع على الإغـراءات الكبيرة التي عرضت عليه من أعلى المستويات وهو لا يزال شاباً في نحو العشرين!

مواجهة الترغيب والترهيب الملكي!

كان الأمير عبد الله بن الحسين (الأول) قد قدم إلى الأردن لنجـدة أخيـه الملـك فيصل في دمشق، لكنه وصل بعد فوات الأوان، بعد رحيل فيصل وموقعة ميسلـون واحتلال سورية. وقد تدفّق رجال الحكم الوطني من سورية إلى الأردن، حيث النفوذ البريطاني وليس الفرنسي، وحيث توقعوا هامشاً يسمح بمواصلة النضال ضد الاحتلال الفرنسي، لكن خطط الأمير عبد الله تطورت إلى إقامة دولة/إمارة في شرق الأردن. وقد كتب لهذه الإمارة أن تتطور إلى مملكة محددة قائمة بذاتها، بينما تقهقـر ميدانيـاً وعملياً مشروع الثورة العربية الكبرى في إقامة دولة تضم الحجـاز وبـلاد الشـام والعراق! وهاهم أولاء قادة الثورة الكبرى يتقهقرون أيضاً إلى حكّـام فـي دويـلات ضعيفة وتابعة، وهاهو ذا عبد الرحمن رشيدات عاشق دمشق، الذي سمى ابنه باسـم رفيق نضاله الدمشقي نبيه العظمة، يتقهقر مثل أقرانه، فترة بعد فترة، ليصبح (أردنياً) واقعياً في المقام الأول، فيتولى مهمة وزير المواصلات عام ١٩٥٢، ثم مهمة عضـو في مجلس الوصاية على العرش بعد تنحية الملك طلال! لقد طغت الأحداث العظمـى والوقائع القاسية التي فرضها النظام العالمي، ولا ريب في أن الذين تقهقروا لم يبدلوا قناعاتهم، وقد ظل عبد الرحمن رشيدات يتحدث بشغف شديد عن دمشق عاصمة بلاد الشام، ويحلم بقضاء ما تبقى له من حياة في ربوعها، وهذا ما سيفعله ابنه نبيه، الذي اختار طريقاً أخرى واضحة، لا مجال فيها للمجاملات والتنازلات، وهاهو ذا الملـك عبد الله الأول يستدعي الشاب الصغير ويستقبله وهو يعرف أنه شـيوعي، فيعاتبـه ويدعوه للعمل في نطاق الأسرة الأردنية، وأمام عناده يهدده بتحطيم عموده الفقري إن لم يتراجع عن (شيوعيته) وعن مواقفه المناهضة للإنكليز وللنظام الأردني! وقد جرى هذا اللقاء بحضور والده، الذي ربما تشكّى منه وخاصمه لبعض الوقت، لكنه لم يعاده ولم يخذله أبداً، وكذلك أفراد الأسرة والعشيرة الذين كانوا يهبون لنجدته في الظروف الصعبة، فكان حزبه يستفيد بالطبع من مثل تلك الهبات والنجدات!

وماذا عن الملك طلال؟

تتضمن أوراق الدكتور رشيدات معلومات هامة تدل على أن مشكلة الملك عبـد الله الأول لم تكن مقتصرة على ابن عبد الرحمن رشيدات بل كانت مع ابنـه الأميـر طلال أيضاً، الذي كان حاقداً على الاستعمار البريطاني وعلى الصهيونية حقداً عميقاً! يقول الدكتور رشيدات إنه ذهب إلى الأمير طلال بمعرفة رفاقه أثناء ثورة رشيد علي الكيلاني في العراق عام ١٩٤١، ودعاه للالتحاق بالثورة العراقية: (إذا ذهبت يا سمو الأمير فسوف ينضم إلى الثورة عدد كبير من الشباب العرب، وسوف نحرر العراق، ثم نذهب إلى سورية ونحررها من الاستعمار الفرنسي، ثم نأتي إلى الأردن ونطـرد الاستعمار البريطاني، ونقيم أول دولة عربية متحررة)! يقول رشيدات، الذي كان في التاسعة عشرة، إن الأمير طلال نظر إليه وقد تأثر بحماسته، وبعد أن فكر قليلاً قال: (خلّينا نفكر يا نبيه)! وقد التقيا مرة أخرى بعد سنوات في جنيف، وكان طـلال قـد أصبح ملكاً، فسأله: (بعدك شيوعي يا نبيه ؟)! وقبل أن يجيبه تطوع أحد المسؤوليـن

الأردنيين المرافقين بالإجابة: (لا يا سيدي، لقد ترك كل شيء، وهو الآن يختص بالأمراض الصدرية)! فقال الملك طلال: (لا، هذا أعرفه، هذا لا يترك، هـو ليـس مثلكم يا منافقون)! والتفت إلى الدكتور نبيه قائلاً وهو يشير باستخفاف إلى مرافقيـه: (انظر، هؤلاء هم أركان دولتك)!

كان الملك طلال يستقبل الشبان الوطنيين ويدعم الثـورة الفلسطينيـة بإيصـال الأسلحة الى رجالها، وأضيف هنا إلى شهادة الدكتور رشيدات ما رواه لـي الفريـق عفيف البزري، وهو أن الأمير طلال زار موقعه الحربي على مشارف القدس أثنـاء حرب عام ١٩٤٨ برفقة المجاهد الكبير فـوزي القـاوقجي، وطلـب منـه قصـف المستعمرات الصهيونية بمدافعه التي اشتهرت بفعاليتها على قلّتها وعتقها. ومع أنـه كان هناك اتفاق لوقف إطلاق النار في تلك اللحظـة فقـد أذن القـاوقجي للـبزري بالاستجابة لطلب الأمير، وحقق القصف إصابات دقيقة مؤثرة، وإذا بـالأمير طـلال يقفز فرحاً وهو يلقي بكوفيته إلى الأعلى ويتلقاها ويطلق صيحات الابتهاج!

وعندما أصبح طلال ملكاً جاءه الإنكليزي غلوب باشا قائد الجيش العربي الأردني يستأذنه في استعراض القوات بمناسبة عيد الجيش. سأله الملك طلال: (أي جيـش؟) قال غلوب: (جيشكم يا سيدي!) قال الملك : (لا والله، هـذا جيشـك، اذهـب أنـت واستعرضه)! ولم يجر احتفال بيوم الجيش كما يقول رشيدات! ويضيف أن أهم منجز في العهد القصير للملك طلال كان إصدار الدستور الجديد الذي تضمـن أن المملكـة دولة عربية مستقلة والشعب الأردني جزء من الأمة العربية، ونص على أن الدولـة تكفل العمل والتعليم، وأن التعليم الابتدائي إلزامي ومجاني، كما نص علـى حقـوق العمال ومنظماتهم النقابية! وهكذا نفهم أسباب خلع الملك طلال وتغييبه فـي الظـلام الدامس دون أن ينصفه أو يذكره أحد !

الأردني الدمشقي والطبيب الإنسان

اختار الدكتور رشيدات مهنة الطب لسبب رئيسي هو حرصه على حريته، فكان ذلك الاختيار عقلانياً ومنطقياً أيضاً، مع أن مزاجه كان أميل إلى دراسة الحقوق، وقد وصل إلى دمشق لدراسة الطب عام ١٩٤١، وسرعان ما انهمك في حياتها الثقافيـة والسياسية، وما كاد يلبي دعوة لحضور اجتماع طلابي حتى أصبح، بعد قليل، عضواً في الحزب الشيوعي، فانطلق على الفور بنشاط يبيع جريدة الحزب ويـوزع بياناتـه ويجمع له التبرعات ويلقي الخطابات باسمه في الأحياء الشعبية. ولم تمـض سـوى سنتين حتى انتخب عضواً في المؤتمر الثاني للحزب الذي انعقد في بيروت، في آخر يوم من عام ١٩٤٣ !

لقد كانت سورية حينئذ ترزح تحت وطأة الاحتلال الفرنسي، لكن دمشق، قبيـل الاستقلال وبعده، كانت تعج بالحياة السياسية والأدبية والفنية، وكانت حاضـنة دافئـة لكل عربي يقصدها. وهاهو ذا الدكتور رشيدات ينهي الصف الخامس، ويتوجه إلـى وزارة الصحة السورية مع أردني آخر لتعيين المستشفيات التي سوف يتدربان فيهـا خلال السنة السادسة. لقد دخل الوزارة في جمع من الطلبة السوريين، وإذا بالأميـن العام للوزارة يستقبله هو وزميله وحدهما، ويحدد لهما المستشفيات حسب رغبتهما، ثم يدخل السوريين بعد ذلك! كان الأمين العام هو الدكتور رشدي الطرزي، الذي لم يفعل سوى ما اتسمت به سورية من تقديم العربي على أبنائها !

منذ ذلك التاريخ اندمج الدكتور رشيدات في الحياة العامة السورية، وأينما توجـه كان الأكثر شعبية بين الأطباء، فعيادته الحكومية أو الخاصة كانت دائماً وما زالـت ملاذاً للفقراء. وقد سافر مشرقاً ومغرباً على مدى أكثر من نصف قرن، مشتركاً فـي بعثات تخصصية ومؤتمرات دولية كثيرة، مقيماً لسنوات في الصين الشعبية والاتحاد

السوفييتي بسبب الملاحقات السياسية، فعرف عن كثب أوضاع العـالم وتعـرف على العديد من قادته. وبالطبع كان ومازال يزور الأردن زيارات قصيرة وطويلـة، لكن دمشق ظلت موئله ومرساه، وبالمقابل فإن الكثيرين من السوريين لا يتصـورون علاقاتهم في دمشق وليس فيها الدكتور رشيدات.

نماذج من ملاحظاته العامة

يقول الدكتور رشيدات عن مشاعره في الحرب العالميـة الثانيـة: (كنـت إزاء الحرب أحمل عاطفتين متناقضتين، فعندما ينتصر الجيش السوفييتي علـى الألمـان أشعر بالسرور، ولكن عندما كان الألمان يوقعون الخسائر بقوى الحلفاء كنت أيضـاً أشعر بالسرور)!

وفي ذلك المؤتمر الذي انعقد في بيروت عام ١٩٤٣ قال الرفيق خالـد بكـداش: (إن الأحزاب الشيوعية بلغت درجة من النضج لم تبق فيها بحاجة إلى مشاورة مركز دولي)! ويعلّق الدكتور رشيدات في أوراقه قائلاً : (ومع ذلك، وبعد ثلاثيـن عامـاً، طلبنا مشورة الرفاق السوفييت حول مسألة داخلية صرف هي الوحدة العربية، التـي يجب أن يكون رأينا فيها هو المرجع لدى الأحزاب الشيوعية خارج البلدان العربية) !

ويروي أنه تعرف على طبيبة يوغسلافية، شيوعية قديمة اشتركت فـي حـرب التحرير، وناقشها حول الخلاف بين الاتحاد السوفييتي ويوغسلافيا، فيقـول: (كـان نقاشي يتّسم بالدغمائية الشديدة التي تعكس وضع الشيوعيين في ذلك الزمن، فقد كانت تحدثني عن نضال الرئيس تيتو ضد المحتلين الألمان، وأنه بطل قومـي لعـب دوراً هاماً في بناء الحزب الشيوعي، وأن ستالين كان متعنتاً يرفض حل الخلاف، لكننـي كنت أرد عليها أن تيتو أصبح عميلاً للاستعمار البريطاني، فكانت تجيبني بألم شديد: هذا مستحيل يا رفيق!).

وعن المواقف المتطرفة يقول: (عندما زرنا متحف الثورة في لينينغـراد رأينـا صورة فيها قادة ثورة أكتوبر، ووجدنا صورة تروتسكي محذوفة، فقالت امرأة بيضاء من جنوب إفريقيا: هذا لا يجوز، أين صورة تروتسكي، لقد كان أحـد قـادة الثـورة فلماذا تحذفون صورته ؟ أجابت الموظفة: حذفنا صورته لأنه كان خائناً! ردت المرأة: هذا لا يجوز، يجب إبقاء صورته، وتحدثوا عنه كما تريدون! يقول الدكتور رشيدات أن كلام المرأة الجنوب إفريقية البيضاء أثار أعصابه فقال لها: إنـك تـدافعين عـن تروتسكي لأنه يهودي! ثم يضيف: عندما زرنا ضريح لينين قالت المرأة نفسها مشيرة إلى جثمان لينين المحنط: هذا مخالف للماركسية! فأثارني كلامها مرة أخرى وقلـت لها: كلامكِ غير صحيح وأنت تحرفين الماركسية! يقول الدكتور رشيدات في أوراقه: الآن، بعد مرور تلك السنوات الطوال، وجدت أن ما قالته تلك السيدة فيه جزء كبيـر من الصحة. إنني أعتقد أن تحنيط لينين مخالف للماركسية، وأعتقد أنه لو استشير قبل وفاته لما وافق على التحنيط، لأنه لا يجوز لنظام اشتراكي في القـرن العشـرين أن يعود إلى أساليب الفراعنة قبل خمسة آلاف عام في تحنيط ملوكهم!

وهكذا نكون - بالمصادفة - قد أنهينا عرض بعض من سيرة الدكتور رشـيدات بحديثه عن الفراعنة، مثلما بدأت السيرة بحديثه عن الأهرامات! وإنه ليسعدني أننـي تحدثت في هذه العجالة عن هذا الصديق العزيز الكبير، الـذي يستحـق الإعجـاب والاحترام والتكريم. إنه ليفترض أن تعامل دمشق الدكتور رشيدات فـي شـيخوخته مثلما تعامل أطباءها السوريين في شيخوختهم من حيث الحقوق المهنية، ومثلما تعامل كبار شخصياتها الوطنية القومية بما يستحقونه من إجلال وإكبار. أليس هو الأردنـي الدمشقي الذي لم يأبه طوال حياته لاتفاقية سايكس بيكو، وظل يتعامل مـع عاصـمة الأمويين كأنما تلك الاتفاقية اللعينة لا وجود لها على أرض الواقع ؟ و بالطبع، ينبغي

أن لا يفوتني ذكر رفيقة عمره التي قاسمته حياته حلوها ومرها، السيدة العظيمـة وداد خلف ( أم عمر ) فكل ما قيل عنه يمكن أن يقال مثله عنها، فلهـا أيضـاً كـل الإعجاب والاحترام، وكل الحق في التكريم.

النور

**www.an-nour.com**
**Political and Cultural Weekly Published by S.C.P**